عليهم رفض وتجاهل كل ما سبق الإسلام من عقائد، ومن جهة أخرى لم يكن لديهم أي اطلاع على الحضارات القديمة إذ كانت هذه قد بادتوانطمرت شواهدها في التراب، فلم يكن المؤر ّخون المسلمون قادرين على القفز فوق شروط عصرهم ومستواه العملي والمعرفي العام".

معنى كلمة أسطورة ومفهومها

كلمة أسطورة كلمة عربية أصيلة على وزن أفعولة وجذرها من الفعل الثلاثي "سطر"، وباعتبار أن ّ لكل ّ كلمة مشتقة (في العربية) جانبين: الأول مادتها والثاني صيغتها أو وزنها، فمادة كلمة "أسطورة" تقوم على جذر فعل يدل على المعنى العام الذي يجمع بين سائر المشتقات منه مثل أسْطُر وسطور وهو الصف من الشيء كالكلمات والشجر ومنها السُطُر وتعني الأقاويل المنم ّقة المزخرفة .. الخ"، أما وزنها : فمن أوزان لغتنا العربية فأسطورة على وزن أُفْعولة" كأحدوثة وألعوبة وغيرها، وجمعها "أساطير" على وزن "أفاعيل"كأحاديث وألاعيب، وهذا ما يؤكّد أن ّ كلمة أسطورة هي أحد اشتقاقات الجذر الثلاثي س ط ر على وزن أُفْعُولَة، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في آيات عدة تحت مسم ّى "أساطير الأولين" وفي ذلك دليل آخر على أن الكلمة ذات أصل عربي فالقرآن نزل عربياً كلّه، وقد ورد لفظ أساطير الأولين على لسان قوم محمد(ص)القرشيين الفصحاء، الذين سمعوا بالأساطير وعرفوها وهم بعد لم يتصل ّوا باليونان أو يقتبسوا شيئاً من ألفاظهموكلماتهم، ولم يرد في التاريخ قبل البعثة النبوية أن ّ العرب قد اقتبسوا من غيرهم وهم الذين يعتز ّون بلغتهم أي ّما اعتزاز. ما يعني بأن من يرى أن كلمة "أسطورة" العربية مقتبسة من كلمة "استوريا" Historia اليونانية وتعني حكاية أو قصة ، "، قلب الحقيقة تماماً، وهو من آثار فرض آراء الغربيين وتفسيراتهم على تراثنا وتاريخنا، فالكلمة عربية في أصلها عبرت إلى شبه الجزيرة اليونانية مع حركة القدماء العرب وهجرتهم، وبالتحديد على يد الفينيقيين الذين استوطنوا سواحل البحر المتوسط وانتقلوا مع لغتهم وتراثهم وكنوزهم إليها، هذه الكلمة كغيرها من الكلمات العربية شكّلت جذور اللغة اليونانية التي نسب إليها واضعو التاريخ في عصرنا الحديث كل الأصول العريقة للمصطلحات والألفاظ، وغضوا الطرف عن أصولها العربية وهو ما أفقدهم في كثير من الأحيان الموضوعية والمقدرة على إدراك الحقيقة والصواب.

والحق ّ أن ّ لكلمة عربية الأصل، حديثا أصبحت تعني السطور أو الأخبار القديمة المدو ّنة المسطورة وهي بمثابة أو ّل كتاب في التاريخ، وقد انتقلت الكلمة إلى اللغات الأجنبية وتطورت لتصبح هـ ستوريا، والهاء حرف تعريف في اللهجة العربية الفينيقية، ثم ّ صارت تعني فيما بعد بـ" التاريخ" في عدة لغات، مع قليل من الاختلافات، فعند اليونان إستورا، وتعني حكاية أو قصة كما تعني "تاريخ"، وفي الإنجليزية نجد كلمة Historyبمعنى تاريخ، وفي الفرنسية إيسْتوار، وفي الروسية استوريا ، وهي كلّها مشتقة من الكلمة العربية أسطورة التي تعنى بكتابة التاريخ وتدوينه.

وبمراجعة تعريفات الباحثين للأسطورة وبالنظر المتعمّق إلى الأساطير باعتبارها جزءا من التراث القديم المعبّر عن نتاجات الأوّلين وأفكارهم وانعكاس تعليم القوى الربّانية لهم، نخلص إلى القول بأنّ الأسطورة هي القصّة الشعرية المصفوفة زجلاً أو شعراً بحيث تحويموضوعاً دينياً يتعلّق بالقوى العلويّة والخفيّة، وتعبّر عن معارف الإنسان الأول وأخلاقه ومستويات علومه وتأملاته، وهي موضوعة في قالب ذي إيقاع شعري موسيقي يتضمن الحدث المراد تأريخه سواء كان من صنع الإنسان أو الطبيعة أو الربّ، لأجل أن يتلى ويُتداول ويؤدي دوره في تثقيف العقول وتحريك المشاعر.

نشأة الأساطير

اختلف الباحثون في منشأ الأساطير بحسب سبقيّاتهم الفكرية والعقلية في تفسير نشأة الكون والإنسان من ناحية والأساطير التي اعتمدوها أساساً لدراسة موضوع الأساطير من ناحية أخرى، "وفي محاولة للوصول إلى أرضية علميةمشتركة في تفسير أصل الأسطورة يقرّر توماس بوليفينشي في كتابه "ميثولوجية اليونان وروما" وجود أربع نظريات في أصل الأسطورة.. وهذه النظريات هي:

النظرية الدينيةالتي ترى أنّ حكايات الأساطير مأخوذة كلّها من الكتاب المقدس مع الاعتراف بأنها غُيِّرت أو حُرِّفت، ومنثَمَّ كان هرقل اسماً آخر لشمشون، والمارد ديوكاليون ابن بروميثيوم الذي أنقذه زيوس مع زوجته من الغرق فوق أحد الجبال هو نوح، وهكذا.

النظرية التاريخيةالتي تذهب إلى أنّ أعلام الأساطير عاشوا فعلاً وحقّقوا سلسلة من الأعمال العظيمة، ومع مرور الزمن أضاف إليهم خيال الشعراء ما وضعهم في ذلك الإطار الغرائبي الذي يتحرّكون خلاله في جوّ الأسطورة.

النظرية الرمزيةالتي تقوم على أنّ كلّ الأساطير بكلّ أنواعها ليست سوى مجازات فُهمت على غير وجهها الصحيح أو فُهمت حرفيّاً، من ذلك ما يقال عن أنّ "ساتورن" يلتهم أولاده أي الزمن يأكل كلّ ما يوجد فيه.

النظرية الطبيعيةوبمقتضاها يتمّ تخيّل عناصر الكون من ماء وهواء ونار في هيئة أشخاص أو كائنات حية، أو أنّها تختفي وراء مخلوقات خاصة، وعلى هذا النحو وُجِدَ لكل ظاهرة طبيعية – ابتداءً من الشمس والقمر والبحر وحتى أصغر مجرى مائي– كائن روحي يتمثّل فيه وتتبني عليه أسطورة أو أساطير. "

ومع التأكيد على خصوصيّة كلّ حضارة وتمايزاتها بحسب ظروفها الزمانية والمكانية ومستوياتها المعرفية وخلفياتها الثقافية، فللخصوصيّة انعكاس كبير على بناء ونشأة الأساطير، إلا أنّ هناك نوعاً من التداخل الذي يخلق تكاملاً بين النظريات الثلاث الأخرى في تفسير أصل الأساطير

مهما كان زمنها أو موطنها، فالنظرية التاريخية تُعطي تفسيراً منطقياً شاملاً لنصوص الأساطير من حيث الواقع والمضمون والشكل، وتكاد تفسّر كل الأشياء الواردة في الأساطير، لأنّ الأساطير في مُجْمَلها تحكي أفعالاً عظيمة لقوى ملائكية أو بشرية كان لها دور رئيسي في تشييد أساسات النظام على هذا الكوكب، والنظرية الرمزية تركّز على الشكل الذي ظهرت عليه الأساطير كونها تستخدم الرموز كمجازات للتعبير عن معاني عظيمة ولكن باستخدام لغة بسيطة مثيرة، وإنّ فهم هذه الرموز يعتبر المفتاح الرئيسي لفهم الأسطورة بأكملها، أمّا النظرية الطبيعية فليست إلا صورة من صور النظريّة الرمزيّة التي تضفي صفة رمزية على الظواهر الطبيعية من ماء وهواء بكائنات ومخلوقات مرئية من الطبيعة، وإذا كان قدامى المصريّين قد رمزوا لأبجديّتهم برموز من الطبيعة كالطيور والحيوانات والأدوات فيما سُمّي الكتابة الهيروغليفيّة فإنّ أبجديّة الأسطورة من قوى الطبيعة وظواهرها قد تشخّصت حال تدوينها وأسطرتها في أسماء أفراد، ولو جمعنا النظرية التاريخية مع الرمزية لحصلنا على تفسير متكامل ومن أبعاد متعدّدة لأصل الأسطورة ونشأتها.

وكنموذج فإن أسطورة (إيتانا والنسر) تشير أقرب ما تشير إلى قصة الخليقة الأولى ومعصية أبينا آدم كما جاءت في النصوص الدينية المتعددة، وهذه الأسطورة التي تستخدم الرمز المعبّر عن الحقيقة، تسرد واقعاً تاريخيّاً حدث في زمان ما ومكان ما، ولكن تمّ فصله من الزمان والمكان ليتحوّل إلى نشيد يتزنّم به الأجيال حفاظاً على الحقيقة التاريخية من الضياع ودرساً في السلوك والحذر من السقوط في جو من الشحن العاطفي للتعالي والسموّ.

فبعد هذا التوضيح لابدّ وأن القارئ الكريم أدرك الفرق بين الأسطورة التي تمثّل سرداً لتاريخ حدث بالفعل أو تعليماً يتناقله الأجيال والخرافة التي لا تمتّ إلى الواقع بأدنى صلة، وإن اتصل بعناصر من الواقع فهي خالية من المعرفة التي تنشئ حضارة وتبقيها قائمة. كما أنه سيدرك ما عنى به المشكّكون في مضامين القرآن بأنه من عند الرسول (ص) حيث قالوا عنها أساطير لا لخوائها من المعرفة بل العكس تماماً، أي لأنهم وجدوا العلوم والمعارف الموجودة في الأساطير متضمنة في آيات القرآن الكريم المنزل على الرسول الخاتم (ص).

كما يمكن تصنيف الأساطير حسب الأهداف التي وضعت لأجلها فهناك الأساطير التعليمية التي كان الغرض منها نقل الفنون عبر الزمان والمكان كالطبابة وأساليب الزراعة التي تعتبر من أعظم التحولات الإنسانية التي انتقلت عبرها من حياة البداوة إلى بداية الحضارة ويمكن قراءة ذلك بوضوح في الأسطورة السومرية عن زواج أنانا من ديموزي. كما أن هناك الأساطير الوعظية التي يدور موضوعها حول الحثّ على التزام الحكمة وبناء القيم، وتأصيل علاقة سليمة بين الإنسان وبين الرب، وتحذّر من مغبة عصيانه أو التمرّد عليه أو منازعته في دوره ومقامه وقدراته ويمكننا أن نجد الكثير من هذه المواعظ في ملحمة جلجامش على سبيل المثال لا الحصر.

وهناك ايضا الأساطير العلمية التي تتحدّث عن قضايا علمية كالخلق والتكوين وأصول الأشياء، وهي من الأساطير التي تبهر العقل وتدهشه لتضمّنها معاني عظيمة عن خلق الكون، وخلق السماء والأرض، وخلق النبات وخلق الحيوان والإنسان، وتعتبر أسطورة التكوين البابلية من أهم أساطير الخلق.

قيمة الأسطورة

السؤال الجوهري الذي يجب طرحفي هذا المكان بعد أن تعرّفنا على مفهوم الأسطورة ونبذة عن نشأتها وأنواعها هو: ما قيمة الأسطورة؟ تتحدد الإجابة على هذا السؤال من خلال معرفة القيمة التاريخيّة للأسطورة وكذلك معرفة القيمة التي يعطيها القرآن الكريم للأسطورة وذلك من خلال تتبع آياته الكريمات التي ذكرت فيها الأسطورة.

لمعرفة القيمة التاريخيّة للأسطورة لابدّ من التأكد ما إذا كنا نتمكّن من معرفة أخبار الماضين أي معاصري الأساطير من خلال أساطيرهم أم لا؟ وهل هناك وسائل أخرى للحصول على هذه المعرفة غير الأساطير؟ إن ما وصلنا اليوم هو بعض الأدوات التي كانت مستخدمة في تلك العصور وبعض مما تبقّى من مباني مشيّدة بأساليب مختلفة، أما المضمون الثقافي الذي وصلنا فهو مكدّس في الأساطير والتي يمكننا بإعادة قراءتها ضمن منظومة منسجمة مع تراث المنطقة أن يفتح لنا أبواباً من منظومة العلاقات التي كانت قائمة والفكر السائد في تلك الحقب البعيدة.

أن ما نستنتجه من هذه القراءة توضّح القيمة التاريخية للأساطير التي يمكن أن نوجزها بعدة نقاط منها:

أولاً: أثراً من الغيب يقف وراء علم الأوائل لتلك الحقائق، وإلا فكيف اهتدت تلك الأقوام جميعها إلى هذا الأمر وكيف اتفقت على الأفكار ذاتها، وأنّى لهم أن يتناولوا قضايا رئيسة كخلق الكون والإنسان كحقائق مؤكدة في مدوّناتهم ونقوشهم؟ أكانوا شهوداً حينما تمّ الخلق؟ تقول الآية الشريفة: (ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ) (الكهف:٥١). فتطابق الأساطير مع الكثير من الحقائق التي طرحها وأكّدها القرآن الكريم كمسألة خلق السماوات والأرض في ستة أيام وخلق الإنسان الأوّل واجتباء آدم ودخوله الجنّة ثمّ خروجه منها، وغيرها من الحقائق يدل على صحّة مضامينها، وإنها كما القرآن الكريم وحي الله إلى عباده عبر أنبيائه، وأنّ القوم كانوا موحّدين عالمين بنظام الكون مذعنين له.

ثانياً: هناك طابعاً مشتركاً لهذا التراث يتجلّى بوضوح في الوحدة الواضحة لمضامين الأساطير خاصة في حديثها عن القضايا الكبرى كخلق الكون والإنسان، لاحظنا في الأمثلة السابقة التي تحدّثت عن بداية الخلق وعن خلق الكون والإنسان كيف أنّها احتوت على فكرة واحدة وهو ما يشير إلى وحدة اجتماعيّة وثقافيّة وعلميّة لتلك الشعوب، بل إنّ بعض الأساطير

وبسبب تلفها أو فقدان بعض أجزائها يمكن توقّع الأجزاء الناقصة منها عن طريق مقارنتها مع أساطير الحضارات المجاورة، وقد اتّجه كثير من الباحثين إلى محاولة الإمساك بالحبل الرابط الذي يجمع كلّ تلك المعلومات في حلقة متكاملة، فجاءت الأساطير كشاهد على التطوّرات السياسية والدينية والأدبية التي مرّت بها الحضارة السابقة لها.

ثالثاإنّ كثيرا من الشخصيات التي كانت تدور حولها الأساطير هي شخصيات تاريخية واقعية من ملوك أو حكام أو أشخاص من الشعب كان لهم دور في الحركة المجتمعية والحضارية لذلك الزمان، وكذلك المدن التي دارت في فضائها الأساطير، فقد أثبتت البحوث الأثرية وجودها وقيام حضارات كبيرة فيها.

رابعاًأنّ الأساطير لم تكن اجتهادات أو أعمال فردية، بل إنّها كانت أعمالاً مقصودة ضمن منظومة عامة خُطّط لها بعناية، وإن وجودها في المعابد ومكتبات الملوك يعطيها اعتبارا إضافيا، فقد كانت تُكتَب برعاية الملك نفسه والكهنة لإثبات أنّها ليست خيالا فرديًا، بل هي نتاج لتوجّهات الجماعة وعقائدهم وآمالهم الأمر الذي أعطى للأساطير قيمةً كبرى سواء لدى المعاصرين لها أو للأجيال القريبة والبعيدة.

خامساً لم تكن الأساطير الأسلوب الوحيد الذي عبّر من خلاله الإنسان الأوّل عن أفكاره، فإلى جانب الأساطير، نجد الكثير من الرسوم والتصاوير التي وجدت منقوشة على جدران المعابد، فالقوم كانوا يؤكدون على الفكرة بأشكال مختلفة تماما كما يفعل إنسان اليوم، ولحفظها من أن تنالها يد التحريف ثانياً، نقشوها برعاية الملك والكهنة فوق جدران المعابد والقصور أو كتبوها على ألواح طينية ورُقُم تذهل العقل لدقتها وبراعتها، أو وضعوها داخل جرار ثمينة وحفظوها في المعابد، وفي مكتبات القصور الملكيّة.

أما بالنسبة لتقييم القرآن للأساطير فقد ذُكرت لفظة "أساطير الأولين" تسع مرات ونجد أن العنصر المشترك في جميع آياتأسأطير الأوّلينأنّها وردت على لسان الكافرين لدعوة الحقّ، ولم ترد على لسان غيرهم من أهل الكتاب، كما أنّ كلّ الآيات قيلت في مناسبات الاحتجاج والجدال حول قضايا إيمانية عقلية منطقية تدعوهم إلى النظر في الدعوة الجديدة نظرة متجرّدة أبرزها الدعوة للتوحيد وقبول البعث والحساب، وأمام عجزهم عن ردّ الحجة بالحجة يلجأون إلى إغلاق باب الجدال بنسبة ما يسمعونه إلى أساطير الأولينوفي ذلك إشارة واضحة إلى أنّ هؤلاء كانوا يعلمون أنّ هناك تراثا مسطورا وضعه الأوّلون ويبدو أيضا أنهم كانوا يحتفظون في أذهانهم ببعض معالمه، ودعوة الرسول قد ذكّرتهم بتلك المعالم، فأقرّوا بأنّ ما يعرفونه سابقاً عن أساطير الأولين يتضمّن معاني تقترب لما جاء به الرسول وهي تخالف معتقداتهم وما هم عليه.

ولإلقاء الضوء على الصلة بين مضامين ما جاء به الرسول (ص) والأساطير، وجب أن نفهم معاني هذه الآيات والتي تمثّل الداعي لتوجيه هذه التهمة، أي أن الآيات منحولة من أساطير